الأثر التربوي لجمال الدين الأفغاني في النجف الأشرف

الأستاذ الدكتور
الدكتور سامي شهيد مشكور
الباحث
تحسين رسول محمد رضا
جامعة الكوفة - كلية الآداب

المقدمة :

يُعدجمال الدين الأفغانيمن مصلحي الشرق الاسلاميوالعربيخصوصاً ، وإنَّ من أركان مشروعه الاصلاحي حركته التربوية والفكرية في هذه المنطقة ، التي رزحت تحت قسوة الاحتلال العثماني قرون عديدة أتت على ما بقي من الفكر والثقافة الناجيتين من غزو هولاكو التتاري ، ذلك الغزو الذي أسقط بغداد ثقافياً ومدنياً ، فأمست المنطقة حينها بؤرة للجهل والأمية وإنعدام التربية التي أثرَّت في المجتمع العربي في حالة من الانهيار والانحطاط المدني كمرضٍ إستعصى على أنجع الأدواء ، في وقت بدأ الاستعمار الأوربي بفكره وإختراعاته وقوَّته العسكرية يقترب من المنطقة كأسد متحفِّز ينتظر الفرصة المؤاتيةللإنقضاض على فريسته التي لا تقوى على المسير .

في هذه الظروف الصعبة وهذا الألم المستعصي برز جمال الدين الأفغاني ذو الأصول العربية القادم من الشرق ، مصلحاً لأمته ومحاولاً بث الروح فيها ليعيدها الى الحياة في حركة إصلاحية تربوية إحيائية للشريعة المقدسة التي حجبتها فتاوى التقليد عن الركب العلمي العالمي ، وكان حسامه في حربه هذه يراعه ولسانه الذي كان أمضى من السيف إذا ظهرت كلمته في الوقت المناسب ، وهو يحارب الجهل والجمود الفكري في المجتمع وفي مؤسساته الفكرية من المدرسة الى الجامعات والمعاهد العليا ، داعياً الى توضيح الشريعة وتجديد المناهج وطرق تدريسها بما يلائم روح العصر الذي هُم فيه .

بدأ جمال الدين الأفغاني حركته الاصلاحية في المدينة التي نوَّرت قلبه وعقله وهي تحتضنه طالباً في مدارسها الأخلاقية والدينية والفلسفية ، حيث الأخلاق أهم من العلم ، ولكن لابد للإثنين أن يسيرا معاً . تلك هي مدينة النجف الأشرف المركز العلمي الأول

لمدرسة أهل البيت في علومها وآدابها ـ وإن تباينت الآراء حول نزوله بها ودراسته فيها ـ ثم واصل حركته الاصلاحية بصوت أعلى وجيش من المثقفين في القاهرة فلم يكن وحده فيها .

لقد كوَّن جمال الدين الأفغاني جيشه بالكلمة الحرَّة والتفسير الجديد للشريعة المقدسة بعد أن قيَّدته فتاوى التقليد ، فكان له الأثر البالغ في الاصلاح والتغيير والاحياء في المجتمع المصري وفي الجامع الأزهر كأكبر جامعة علمية وأكبر مركز علمي لأتباع المذاهب الأربعة التي إتَّخذت من التقليد طريقاً لها . لذلك سيكون البحث على هاتين المدينتين موضحاً آثار جمال الدين الأفغاني التربوية والاصلاحية فيهما .

١ـ الأثر التربوي لجمال الدين الأفغاني في مدينة النجف الأشرف :

بقيت مدينة النجف الأشرف حالها حال أخواتها من المدن الاسلامية تحت نير الإحتلال العثماني ووطأته ، بما فيه من التخلف والقهر والجمود الفكري والإقتصادي الذي منشؤه الإستبدادوالإستعباد الذيمارسته السلطة العثمانية الجائرة مبتعدة عن مبادئ الدين الاسلامي القويم وطريقه في تحرير الانسان من ربقة عبودية بني البشر الى عبودية الخالق وحده .

إلاّ أنّ صدور بعض القوانين الاصلاحية لهذه الدولة الاستبدادية نتيجة الضغط الجماهيري والاقليمي خلال العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر ـ وهي الفترة التي وصل فيها الأفغاني الى النجف ـ مثل خط كلهانةوخط همايون ـ قد رفع بعض الضيم عن العراق ((ولكنّ الاصلاح كان قليلاً وقليلاً جداً))(١) ، بحيث يمكن القول أنّ بعض الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي قد وُضعت أُسسه وبدت علاماته في هذا البلد ذو الحضارة والتاريخ ، بينما سبقتهم هذه المدينة حيث كانت تضم مجموعة من المدارس الدينية ، التي نشرت الوعي بين طلبتها ثم ينتشروا في المدن العراقية وبعض الأقاليم الاسلامية لتعليم الناس مبادئ الدين الاسلامي ومبادئ ثورة الامام الحسين ـ ع ـ ، وكان طلبة هذه المدارس من جنسيات مختلفة مثل لبنان وإيران والهند والباكستان وأفغانستان وبعض الدول الافريقيةإضافة الى العراقيين طبعاً ، وهذا التنوع في النسيج الطلاّبي في مدارسها تأتّى من صوتها العالي المسموع ورايتها الخفّاقة في العلم والثقافة

والمعرفة والأدب خاصة الأصول وعلوم القرآن والفقه وعلوم اللغة العربية وأحكامها ، رغم الحصار العثماني وشدّته عليها.

ولعلو باب مدينة باب علم النبي(ﷺ) نصح أساتذة جمال الدين الأفغاني في إيران أبوه بالسفر به الى مدينة النجف ، بعدما وجدوا في نفس هذا اليافع من حب العلم ومواصلة التعلّم والسير في طلبه ،وكانت إيران هي محطته الأولى في إستحصال بعض العلوم وخاصة اللغة العربية التي مهدّت له الطريق الى النجف لمواصلة العلم، مع ما كانوا يتمتعون به من درجة علمية عليا هناك ، الاّ أنّ الدراسة في مدارس النجف لها شأن أعلى وأثمر ، فوصل إليهاولّما يتجاوز الثانية عشر من عمره ليتلقاه (الشيخ مرتضى الأنصاري) وهو أحد أعمدة تلك المدارس وأحد الأعلام الكبار في عصره.

لقد إختلف الكاتبون على كثرتهم حول دراسة جمال الدين الأفغاني في النجف وسكناه فيها ، مثلما إختلفوا في موطنه ونشأته ، لكنّا سنتطرق الى بعض الآراء حول دراسته ومكوثه في النجف ،ونترك الموطن والنشأة حيث بحثها الكثيرون منهم . إنّ موضوعة دراسة الأفغاني ومكوثه في النجف ممّا يبدو قد أقلقت الكتّاب المصريين ، حيث أنّهم لا يكادون يشعرون بوجود هذه المدينة أو مدارسها العلمية إلّا وتصيبهم القشعريرة والنفور منها ، لذلك هم لا يذكروها في كتاباتهم وربّما حتى في أحاديثهم المتداولة بينهم ، فكيف يكون جمال الدين تخرّج من مدارسها ثمّ أثّرَ في مثقفيهم ومجتمعهم هذا التأثير ، يقول محمد عمارة ((ثمّ ألا يدعو الى الرثاء زعم القائلين بشيعية الأفغاني أنّهُ قد ضمّ الامام محمد عبده الى مذهبه))(٢) ، فتبدو المذهبية والطائفية واضحة جلية في تلك القشعريرة التي تلازمهم حين يمر ذكر مدينة النجف الأشرف بينهم . مع أنّ محمد عمارة يذكر دراسته فيها ((وفي عام ١٢٦٦هـ سافر الأفغاني مع والده الى النجف وفيها مكث أربع سنين درس العلوم الاسلامية في التفسير والحديث والفلسفة والمنطق))(٣) ، بينما يذكر الباقون ومنهم محمود قاسم أنّ الأفغاني ((دخل المدرسة في كابل لتحصيل العلوم العربية والشرعية والعقلية ثمّ سافر الى الهند درس فيها العلوم الرياضية ثمّ عاد الى بلاده))(٤)وهو يقصد أفغانستان . وأيضاً يردد رشيد محمد رضا مقولة صاحب كتاب خاطرات جمال الدين الأفغاني فيقول((أنّ الأفغاني درس في كابل حتى سن الثامنة عشرة ليسافر بعدها الى الهند))(٥) ، وعلى نفس المنوال يسير

علي المحافظة ((أنَّه تلَّقى تعليم العربية والعلوم الدينية في كابل وإنتقل الى الهند فتعلَّم الانكليزية))(٦) . وهذا ما كان من أمر المصريين ، بينما يذكر معظم من كتب عن جمال الدين الأفغاني من العراقيين ومنهم الشيخ أغا بزرك الطهراني وعبد الجبار الرفاعي وعلي الوردي وآخرين غيرهم ، أنَّه درس ومكث في النجف الأشرف حوالي خمسة عشر سنة على قول عالم الاجتماع علي الوردي الذي يقول ((أنَّ الأفغاني حين بلغ الثانية عشر سافر مع والده الى العراق لزيارة العتبات المقدَّسة ثمَّ إستقر في النجف))(٧) . ومن الملاحظ أيضاً أنَّ المصريين لم يتعودوا الاعتماد على المؤلفين العراقيين كمصادر لما يكتبون .

بقي الأفغاني في المدارسالنجفية ((أربع سنين درس في الأوليتين العلوم الأولية والمتوسطة بينما في الأخيرتين كان نصيبه منها العلوم العالية كالمنطق والأصول والحكمة الالهية))(٨)، وكان قد تعلّم العربية وأتقنها قبل مجيئه الى العراق،والأفغاني بقي على سليقته نابغاً ذكياً فطناً إستطاع أنْ يكون مع كبار العلماء مع قلّة المدّة الدراسية ، بينما على الطالب في هذه المدارس أنْ يقضي ربما أكثر من عشرين سنة في الدرس وطلب العلم حتى يكون ملازماً لنخبها العلمية وأساتذتها وكبّار علمائها . لذلك نال جمال الدين ما ناله من الحقد والبغضاء والضغينة من بعض زملائه في الدرس بسبب النبوغ وهذه المكانة الرفيعة ((وقد ظهر لأول مرة في حياته حسد الحسّاد له))(٩).

لكن كيف كان الدرس وطريقة التدريس في المدارس الدينية في هذه المدينة ؟ لايوجد في هذه المدارس قوانين متبّعة تجبر الطالب على الحضور الى المدرسة ، فهو أما يشارك زملائه في الحضور أو يتفق مع أستاذه بتدريسه منفرداً ، ولا ضير في أن يترك الطالب الدرس إذا وجد أنّ أستاذه ضعيف في تدريسه ، فلا ضياع للوقت ولا مجال للّهو به ، فالطالب يبحث عن أستاذ آخر إذا لم ينفعه تدريس الأول ، وبالمقابل على الطالب أن يكون مجدّاً ويكتب الدرس ويستوعبه ثم يتأكد من مصادره ليراجعه مع زملائه فينتهي الى نتيجة يطمئن اليها. وللطالب على الأستاذ توجيهه الى عدة أمور منها :

((**أ- التدبّر في الدرس ومراجعته لاحقاً مع إعتماد المصادر ذات العلاقة**.

ب - تربية التلاميذ على البحث عن الدليل والبرهان ورفض ما لا برهان عليه .

ج - كتابة الدرس حسب ما سمعه من أستاذه والتساؤل مع زملائه على أساس - الدرس مرة والتكرار ألف مرة - .

د -التأكيد على التقوى والورع وتهذيب الأخلاق لأنَّ تربية النفس أهم من التعلم))(١٠)

هذه الأمور ومعايشتها حياتياً والتعامل بها مع الآخرين ، كيّفت عقل الطالب جمال الدين الأفغاني على مواصلة العلم وتحصيله من مصادره الأولى ، والبحث في البرهان واعتماده كوسيلة للمحاججة ورفض كل ما لايستند الى برهان واعتباره باطلا ، وكيّفت أيضاً أخلاقه ومتّنتها وأضافت اليه ما كان يحمله منها ، وأبعدت ما في نفسه من الشوائب ليكون بالتالي عفيف النفس زاهداً في دنياه قريباً من التصوف بعيدا عن ملذّات الحياة ،فالدرس والعلم يؤديان بطالبهما في النهاية الى التربية الحقّة ، وهي مقدمةٌ عليهما وصولاً الى السعادة ثم الكمال الذي يبغيه جمال الدين ، فهو يقربه الى خالقه ليكون نزيل جنان العزيز الجليل .

بدأت الحركة الاصلاحية في العراق عموماً وتأثّرت بها النجف الأشرف بعد ظهور المصلحين العرب في مصر وبلاد الشام ((و وجود بعض الجاليات الأجنبية وإنشاء العلاقات بين مثقفي البلد ومثقفيهم))(١١)،ثم وصول بعض الصحف والمجلات العربية وتنقّل المثقّفين والتجار بين هذه البلاد والعراق ((بدأت الحركة الاصلاحية في النجف مع ظهور المصلحين في الوطن العربي وتأثرها بهم خاصة الذين درسوافيها ومنهم جمال الدين الأفغاني))(١٢)، وكانت النجف حينها في حركة مجالسها وندواتها تبحث عن التغيير والتجديد ، لإنماء الروح التربوية والعلمية والوطنية والأدبية الجديدة في المجتمع ((فقد شهدت النجف قبل ١٩٠٨م محاولات لتهذيب الدروس في معاهدها العلمية))(١٣)، لكن هذه الحركة ما فتئت أنْ هدأت لوجود المعارضين من المحافظين على القديم ، وهو ما كان موجوداً في جميع المجتمعات وعلى مر الدهور ، إلاّ في الإتجاه الأدبي فقد ظهر في النجف رجال مبرّزون حملوا راية التجديد وساروا بها .

لكنّ جمال الدين الأفغاني قد سبق هذا التاريخ بحوالي نصف قرن من الزمان عندما بدأ حركته الاصلاحية في النجف ((إذ كان له الكثير من المناظرات والمناقشات مع علمائها وأُدبائها))(١٤)، وهذه قد أوجدت في نفس الأفغاني وفي النفوس الحاضرة معه الأثر البالغ في تعميق الوعي الديني والثقافي والأدبي ، حتى بانت ملامحه وآثاره عليه في قادم السنين وهو يقف خطيبا مصقعاً قلما تجد له نظير باعتراف الكثير من علماء وأدباء العربية أمثال شبلي شمّيل وأنطوان فرحوحفني ناصف وغيرهم الكثير .

يقول شبلي شمّيل عندما شاهد جمال الدين يخطب في الإسكندرية من مصر((فوقف ساعتين يتكلم بلسان عربي فصيح وإلقاء حسن الكلام مفيد حتى أدهش الناس))(١٥)،وكذلك ما ورد عن حفني ناصف على لسان الشيخ رشيد محمد رضا أنّه قال ((إذا قيل لنا أنّ جمال الدين الأفغاني سيخطب نفضّل سماع خطبته فنؤثرها على غيرها وكنّا نجد من أنفسنا من سماع خطبه أنّ الواحد منّا جدير بإصلاح مديرية أو إصلاح مملكة))(١٦)لكن هذه الحركة الاصلاحية لم يسلط عليها الضوء بصورة صحيحة ربما لقلّة المصادر وعناء البحث أو بسبب أولئك المحافظين الذين لهم اليد الطولى والرأي الأول في المدارس والمجتمع النجفي .

لقد كان جمال الدين يبث أفكاره الاصلاحية من خلال المناظرات والمناقشات مع علماء المدينةوأُدبائها ويثير بعض المسائل العلمية أثناء الحصص الدراسية حيث الطلبة يفترشون الأرض في أروقة الصحن العلوي الشريف وباحاته، لعدم وجود المباني المدرسية وندرتها لارتفاع كلفها ورفع يد الدولة عن هذا الأمر كلياً ، إذ البناء يكون بجمع التبرعات ومساهمة الأثرياء من أتباع مدرسة أهل البيت ـ ع وكانت أكثر هذه الحصص الدراسية على شكل حلقات في نصف دائرة والأستاذ يقابلهم ، وهي مدار بحث لمعظم المسائل موضوعة الدرس والأفغاني يسأل ويعلّق ((لتثير الضجّة حول أفكاره فينصحه أستاذه بمغادرة النجف))(١٧) . حرصاً عليه ومؤيّداً له في مواصلة البحث والتحقيق .

إنَّ التحلّق حول الأستاذ وهو يشرح الدرس قد تأثّر به جمال الدين ونقله الى القاهرة ، فقد شوهد وهو يلقي محاضراته في مقهى البوستة والمجتمعون حوله في نصف حلقة .

إنّ أولى أفكاره الاصلاحية كانت محاولته رفض المناهج التقليدية التي تدرس في هذه المدارس ، وكان إعتراضه عليها أنّ النجف هي مركز مدرسة أهل البيت ـ ع ـ التي تدعو الى فتح باب الاجتهاد وعدم الأخذ بالتقليد ، وهو ما لم تعمل به مدارس النجف إلاّ في باب العبادات من الطهارات والنجاسات وبقية الأمور الأخرى المتعلّقة بها وكأن الدين عبادات وليس الدين معاملة ،أما البحث في باقي العلوم العقلية فهي في منأىً عنها ولا جديد فيها ،في وقت برّزت المدارس الدينية في عالمنا الاسلامي على سابق عهدها الكثير من الفلاسفة والعلماء لاتزال آثارهم واضحة الى الآن ومنهم الفارابي وإبن سينا والغزّالي وإبن رشد وجابر بن حيّان بل إنّ معظمهم من أبناء المدارس والمعاهد الدينية ، حتى أنّ التاريخ يحدثنا أنّ الإمام جعفر الصادق ـ ع ـ وهو مؤسس مدرسة أهل البيت كان يعطي دروسه في نواحي العلوم وقد تخرَّج من بين يديه آلاف العلماء في مختلف الفروع .

ويحدّثنا التاريخ الأوربي أنّ الكثير من علمائها ورجال الفكر ومصلحيها كانوا من رجال الكنيسة أو من الذين درسوا في مدارسها الدينية مثل القديس أوغسطينوتوما الإكويني ومارتن لوثروشيشرونوإراسموس وغيرهم . فلا ضير من إضافة العلوم الحديثة في مناهج المدارس النجفية ، لعلها تبرّز مجموعة من العلماء في العلوم الجديدة .

ومن أفكاره الاصلاحية التي دعا اليها ، وهي تمثل البعد التربوي للتحرر من ربقة الإستعمار وكيفية محاربته ودحره ، كلماته المؤثرة وآراؤه الداعية الى رفع الظلم والحيف عن المسلمين ، في حديثه مع زميل دراسته السيد محمد سعيد الحبوبي ، يقول علي الوردي ((حدّثني ثقة من أهل النجف أنّ الأفغاني حين زار النجف متنكِّراً إجتمع بالسيد محمد سعيد الحبوبي وكان إجتماعهما في الصحن الحيدري الشريف في الغرفة التي تقع فوق باب القبلة ، وقد طال إجتماعهما منذ صلاة العشاء حتى مطلع الشمس))(١٨)،ومن نتائج هذا اللقاء أن أسهمَ بما لا يقبل الشك في التأثير والتأثر بينهما، لأنّ الاستفسار عمّا دار في هذا الاجتماع ولم يعرف أحد كنهه وعلى ماذا كان وقد استمر لساعات طوال،لابد الجواب يكون ((الأمر الذي أدى الى إنضاج دورهما في محاربة الظلم والاستبداد والاستعمار أينما كان))(١٩) ،ولو كان الجواب على أمور أخرى كالعلوم مثلاً لما احتاج هذه الخَلوة ولا استدعى هذه الساعات الطوال ، ولكانت حلقة

الدرس أفضل وانفع . إنّ ما استحصله الأفغاني من مبادئ اخلاقية وتربوية وفلسفية في مدرسة أستاذه (الشيخ حسين قلي الهمداني) في النجف الأشرف . ربما قد أتت ثمارها في هذا الاجتماع وبلورت أفكاره في محاربة الظلم والجور والاستبداد .

أما دعواه الثالثة كانت في تهذيب النفوس وتربيتها على تلقّي الصالح وإبعاد الطالح من الأقوال والأفعال والممارسات ، ففي نقده لبعض الممارسات والتقاليد التي يعتبرها غير صحيحة في الشعائر الحسينية ، ليكملها بعده (محسن الأمين العاملي) و (هبة الدين الشهرستاني) في أواخر عشرينيات القرن الماضي ، وهم من المتأثرين بحركة جمال الدين الأفغاني الاصلاحية ، في تهذيب وتصحيح العادات والتقاليد بما يتلائم والمعتقدات الاسلامية ، ورفض ما لا معنى له ولافائدة تُرجى فيه ،حيث أحدثت هذه الحركة ضجّة في المجتمع آنذاك حتى ((إستطاعت رغم قوة المعارضين لها أن تؤتي بعض ثمارها وقد أفتى هبة الدينالشهرستاني بحرمة بعض هذه الممارسات التي تعتبر مخلّة بحقيقة النهضة الحسينية))(٢٠) .

لقد بدأ السيد جمال الدين الأفغاني حركته الاصلاحية منطلقاً من مدينة النجف الأشرف ، الى عالمٍ أرحب هو عالم الأمة الاسلامية ، الذي وجده في حال لايحسد عليه من الظلم والظلام الفكري والجمود الحركي ، في شتى ميادين الحياة وهو يدعو الى الايمان بشريعة النبي الأكرم ـ ص ـ السماوية والى تطبيق شريعتها السمحاء ، بعيداً عن الغلو وعمّا أرتبط بها من أوهام العقل والعمل وفتاوى المنتفعين من وعّاظ السلاطين الذين شوّهوا هذه العقيدة .

٢ـ أثر دعوة جمال الدين الأفغاني الاصلاحية في القاهرة :

عندما يذكر جمال الدين الأفغاني لابّد وأن يتجه الفكر الى محمد عبده فيقال أنَّ الثاني كان مصاحباً الى الأول ،وهو ليس من باب التأثير والتأثر بل من باب التأثير والتعلق حيث كان محمد عبده مصاحباً وملازماً تلميذاً ثم صديقاً لإستاذه جمال الدين ،وليس العكس هو الصحيح . لذلك فأنَّ أي عمل في حركة أو قول لمحمد عبده ، لابد وأن يعتمد في أساسه على نصائح جمال الدين في الدروس والمواعظ والإرشاد حينما كان معه ، وأولها إتجاه محمد عبده الى التصوف الفلسفي((لاجرم كان الشيخ محمد عبده صوفيّ الأخلاق وقد هذّبت من صوفيّته تربية السيد جمال الدين الأفغاني))(٢١) ، ولو

أنَّ هذا الأخير إبتعد بعض الشئ عن فكر أستاذه في آخر سنيّ عمره عندما وجده خالي الوفاظ من النتائج التي كان يروم نيلها في إنهاض الأمة الإسلامية وإبعاد شبح الموت عنها ، لكنَّ جمال الدين قال في حبّه لمصر واعتزازه لها ((إنّها أحب بلاد الله الّي وقد تركت لها الشيخ محمد عبده طوداً من العِلْم الراسخ وعرمرماً من الحكمة والشمم وعلو الهمم))(٢٢) .

عندما دخل جمال الدين الأفغاني مصر خارجاً من الهند فيأول مرة عام ١٨٧٠م ، لم يخطر بباله أنْ ينال هذه المكانة والحظوة بين رجال الأزهر وقد سمع عنه الكثير ، فأين الأزهر وعلومه وأساليبه التقليدية في إستحصال المعارف التي قال عنها محمد عبده ((تزيد الجاهل جهالة ، ويحولون بين طالب العلم وبين نفع الناس بعلمه))(٢٣)ممّا كان يحمله جمال الدين علْماً في صدره من آراء وأفكار وفلسفة لم يعهدوها ، بينما يخبرنا الاعلام المصري ما للأزهرولأنفسهمالمكانة العليا والقِمَّة التي لا تجارى في العلم والمعرفة على غيرهم من مثقفي العالم الاسلامي . وكان يمر على الجامع الأزهر يجلس مستمعاً ولم ير يوماً محاضراً فيه ،لكن بعض طلبة العلم من السوريين في الأزهر ولا أعلم كيف حصل التلاقي والتعارف طلبوا منه شرح الإظهار . يقول محمد عبده ((بينما كان المصريون مقتنعين بالخضوع للسلطان لاكاتب ينبههم ولا خطيب يعظهم جاء الى هذه الديارررجل غريب بصير في الدين عارف بأحوال الأمم جَمُّ المعارف ، إشتغل بالتدريس لبعض العلوم العقلية فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة))(٢٤) ، ذاك هو جمال الدين الأفغاني .

ومن هنا لمع بريقه وظهر نجمه وبزغت شمس معارفه في مصر ، فذاع صيته بين طلاّب الأزهر ومثقفيها ومنهم كان محمد عبده ((فوضع جمال الدين حجر الأساس للتعاليم التي طورها بعد ذلك))(٢٥). ثم تتعرف السلطة على ما يحويه من علم في مكنونات صدره ، فيلح رياض باشا على الخديوي إسماعيل في إبقاء جمال الدين في مصر وقد شبَّههُ للخديوي قائلاً ((أنْ يكون وجوده فتحاً كتأسيس معهد من المعاهد العلمية التي أنشئت على يديه))(٢٦) ، وكان الخديوي قد أنشأ بعض المعاهد في مصر لأنَّه كان محباً للعلم والتعليم طالباً له . إنَّ طلب السلطة المصرية في إبقاء جمال الدين لدليل على حمله علماً جمّاً يستفيد منه المثقف المصري بل الشعب ولو بصورة غير

مباشرة ، فهو كمؤسسة تنويرية تعليمية تنقذ الأمة من الجهل المخيِّم عليها ، ولو في هذا البقاء كان بعض التنافس السياسي ، نفذّه ساسة مصر بدون علم الأفغاني بأنها أقدر على أن تتقبّل أفكاره وآراؤه من الإستانة التي رفضته وأبعدته الى مصر ، فمكث فيها ثمان سنوات إستطاع خلالها أن ينشرعلومه وتعاليمه التربوية بين أهلها على إختلاف طبقاتهم وذلك عن طريق مدرستين أقامهما جمال الدين في القاهرة ((الأولى بيته وفيه يلقي الدروس والمحاضرات على طلاّب الأزهر وبعض علمائه كمحمد عبده والهلباوي وسعد زغلول ، بينما الثانية فكانت قهوة البوستة حيث يلتف حوله الكثير من رجال مصر ليأخذوا عنه آراء في السياسة والأخلاق والدين والأدب لينشروها بعد ذلك بين الناس))(٢٧) . لقد كانت هذه الطبقة تتداول أفكار جمال الدين بينها وتتعقّلها وتعّلق عليها ثم ينشروها بين الناس ممّن لايجدون الفرصة في الحضورالى الدرس ، فكان هؤلاء الرابطة بين جمال الدين والشعب المصري المتعطش لمبادئ الدين الاسلامي وللتربية والتعليم ، ومن هنا كان تأثيره على المصريين عموما بتوضيح تعاليم الدين ونشر الاخلاق بينهم ، فكانت دعوى تربوية إصلاحية نشرها الأفغاني في مصر تسري بينهم كما تسري العطور الطيبة في الهواء فتنعش الأرواح وتهدئ النفوس .

ويورد صاحب كتاب جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الاسلامي حديثاً عن (جابرييل هانوتو) أنّه يرى ((أنَّ جمال الدين هو مبدأ النهضة المعنوية من حيث تأثيرها في نفوس المصريين وهي أشبه بتعاليم فولتير وجان جاك روسو في فرنسا))(٢٨) .

لقد وصف لنا الذين كتبوا عن جلسات جمال الدين الدراسية بعض ملامحها ، ففي بيته مثلاً كان يضع السماور وهي أداة لعمل مشروب الشاي جلبها من العراق ولم تعرفه مصر من قبل في جلسة لطيفة يوزع خلالها هذا السائل على الحاضرين ، بينما هو يقرأ عليهم المحاضرة وهم مستأنسون ومستمتعون بالفكرة والرأي ، أمّا جلساته في مقهى البوستة فهو في قاعة بالمعاهد العلمية العليا ، حيث يشرح الأفغاني لهم قواعد الاسلام الصحيحة إستناداً الى الدليل والبرهان ،ويجلس حوله المتلقّين في نصف دائرة ، ومن شتّى الطبقات العلمية والأدبية ، يسألون والأفغاني يحلُّ عقد مسائلهم وإشكالاتها بلسان عربي مبين ، ومعلّقاً منتقداً للجرائد التي تكتب في العلم والسياسة ولا تنّبه المصريين الى التربية ، فيقول لو تكتبون لهم((أغسلوا أيديكم واغسلوا أرجلكم))(٢٩) ، وكان

أيضاً يحثُّ الطبقة المثقفة المصرية على التلاحم مع الشعب فلا يعزلوا أنفسهم وعليهم توعيتهم خاصة الطبقة الفقيرة وهم أكثر الموجود ، وبهذا يكون جمال الدين قد وضع حجر الأساس للعلم والتربية والتعليم في مصر .

ثم تطورت تعاليم جمال الدين الاصلاحية الى المصريينواتّضحت ، بعدما بدأ النفوذ الأجنبي يتغلغل في مختلف نواحي بلدهم ،وهو ما نوّه عنه المستر بلنت حيث كتب ((إنّ جمال الدين أخذ ينبه تلاميذه الى مضار التدخل الأجنبي))(٣٠). وكان ذلك واضحاً في دروسه ومقالاته التي كتبها عن فلسفة التربية وفي شرح إشارات إبن سينا في الحكمة العقلية ، حيث ربط بين الدين والتربية والسياسة ، فكانت دعوته الاصلاحية متشعبة النواحي وتصب في تنوير النفوس وهديِها ما يؤدي الى رقيّ البلاد وعمرانها وهو ما كان يتمنّاه لكل أقاليم الاسلام . ومن خلال هذه الدروس والمقالات حث المصريين الى البحث والتفكير باتّباع أسلوب الاستنتاج والاستنباط الفلسفي ،وهو أسلوب لا يعمل به في مصر قبل مجئ جمال الدين اليها ،وحثّهم أيضاً على روح التفكير المطلق وإعطاء العقل بعض الحرية في العمل والاستنتاج،فكان ((يجمع بين تدقيق الشرقيين وبسط الغربيين ويجمع الى الأصول فروعها والى المقدمات نتائجها))(٣١) ،وهي قفزة نوعية فكرية في العقل المصري لم يشهده منذ قرون حتى أنَّ محمد عبده يعلّق على محاضرات أستاذه في التربية وفلسفة الصناعة قائلاً ((إنَّه إستطاع أنْ يعيد للطلبة حب وحرية البحث وأن يوجِد شخصيات تبحث وتنقد وتحكم))(٣٢) . وهذا الإحباط والركون الى النمط التقليدي في الدراسة والتعليم مردّه الخضوع والخنوع الذي لازم المجتمع المصري لسنين طوال ، فالعقل لايعمل بكامل طاقته للأوهام التي تحيط به ،ولكن بمجيء جمال الدين الى مصر تغيَّرتْ هذه النمطية ((كنا نحن المصريون مُلكاً للخديوي وأنَّ سعادة المصريين وشقاؤهم مرهونة الى أمانة الخديوي وعدله ولا يحق لهم حتى إبداء الرأي في إدارة البلاد))(٣٣) . وكانوا مطمئنين الى هذا الإستبداد والاستعباد مسلّمين له حتى أنَّهم كيفوا حياتهم عليه ، ويبدو أنَّ هذا الأمر سارٍ فيهم منذ سطوة الفراعنة عليهم قبل آلاف السنين ،وقد حدّثنا التاريخ عن بناء الاهرامات والأعداد الهائلة من العمال الذين ماتوا بسبب القهر والجوع أثناء العمل ، وكذلك ما فعله بهم محمد علي باشا أيام حكمه في تسخيرهم بالعمل في مزارعه ومزارع أتباعه ، ثم ليكونوا جنوداً في جيشه ينفِّذون

طموحاته العسكرية ، وفي العهد القريب إستعمالهم في شق قناة السويس من قبل الشركة الفرنسية ومهندسها ـ دي سيليبس ـ . لذلك إستقبل المصريين تعاليم جمال الدين وأفكاره الاصلاحية وفهموها ونشروها بينهم وهي تحمل الوعي والثقافة والتربية الدينية وفق تفسيرات جديدة تعطيهم الحرية في القول والعمل بما لا يخالف تعاليم الشريعة الاسلامية ، فكانت بحق صعقة نبهت أذهانهم الى وجوب المشاركة في الحكموعلى وجوب إصدار الصحف والمجلاّت ليكون الشعب على تواصل مع التغيير .

كان جمال الدين ينصح تلاميذه كمحمد عبده وسليم النقاش وأديب إسحق على الكتابة في الصحف فكانوا يكتبون في جريدتي مصر ومرآة الشرق ، ثم أرشد النواب الى العمل بواجباتهم إتّجاه هذا الشعب المتهالك والمندفع نحو الحرية ، ويكتب الى الفلاحين وهم الطبقة الكبيرة في البلاد ((وأنت أيها الفلاّح المسكين ... تشق الأرض لتستنبت ما تسدُّ به الرمق وتقوم بأود العيال ،لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك))(٣٤). وكأنه ينبه الفلاّح المصري الخامل الى العدل الالهي وأنَّ الانسان ليس عبداً للسلطان بل نحن والسلطان عباد الله الذي خلقنا لنكون أحراراً في دنيانا عبيدا لله الخالق فقط ، فكانت خطبه ومقالاته أكثر إيجابية في دفعهم الى التمسك بتعاليم الشريعة ومكافحة الظلم .

إلاّ أنَّه وفي كل زمان ومكان توجد شياطين الإنس يعيثون في الأرض الفساد ويعملون مع الطغاة ضد الاصلاح والتنوير فبدأوا يحيكون المؤامرات ضد إصلاحات جمال الدين وتعاليمه التي إستقبلها الشعب المصري بقبول حسن وأخذ يعمل بها أملاً في النهوض والخلاص من الجهل وأسبابه ، فانبرى البعض من هؤلاء ومنهم علماء ورجال دين ومثقفين من المحافظين والمنتفعين بالجمود الفكري والجهل والرافضين لروح العصر الجديد ، لكن ((جمال الدين تجاوزهم وخلّف وراءه مدرسة تنشر تعاليمه فكان محمد عبده ومحمد رشيد رضا ومصطفى عبد الرازق ومحمد فريد وجدي))(٣٥).

خاتمة البحث :

لكل بداية نهاية كما يُقال ، لكنَّ حركة جمال الدين الأفغاني الاصلاحية لم تنتهِ ، كونها أثَّرت في الحركات الاصلاحية التي أتت بعدها .

ففي النجف مثلاً وقد كان أوحدياً بين المحافظين في حركته ، فلم ينجحوخبا لهيبها فآثر السفر بعيداً ، إلّا أنَّ شعاع حركته تأثر به الكثيرون الذين ساروا على نهجه في طلب الاصلاح وتغيير المناهج التي تُدَّرس في مدارسها،باضافة العلوم الطبيعية كمادة في الدرس ، وفي تهذيب بعض الشعائر الحسينية التي خالطها الغموض وشابها عدم النضج .

أمّا في القاهرة فكان تأثيره أقوى وأعم ، لأنه كوّن جيشاً من مثقفي مصر أوفياء لفكره أثَّروا في الحياة الفكرية والتربوية والثقافية لدولتهم ، فكان تأثيره واضحاً جلياً على الشعب المصري تسري أفكاره الاصلاحية والتربوية بينهم كما تسري العطور الطيبة في النسمة الرقيقة فتنعش الأرواح وتهدئ النفوس .

فقد وضع الأفغاني الأسس المتينة للعلم والتربية الجديدتين في مصر وإستطاع بنهجه التعليمي أن يعيد للطلبة حب وحرية البحث بما لا يخالف الشريعة المقدسة بعيدا عن التقليد وسلبياته وقد رحَّب الجمهور بها ، وإستخدم الصحف كوسائل للاتصال بين المثقف والجمهور ، ودعا جماعته الى إصدارها ، فكانت أنجع سبيل الى إيصال الفكر والرأي التربوي والثقافي الى من يحتاجه، وما أكثرهم في منطقته. لقد كان جمال الدين الأفغاني بحق مدرسة أو معهداً عالياً متنقلاً داعياً الى الاصلاح وإحياء ونشر الشريعة الاسلامية وفق أسلوب تربوي حضاري حديث وموفقاً بين الدين والعلم الذي أصبح سمة العالم الجديد باختراعاته ومكتشفاته ونظرياته الفكرية الجديدة .

Abstract

Jamaluddin Al Alafghani bore on his shoulders the concerns of the Middle East and the Arabic nations which were severely influenced by the corrupted ruling of ottomans. The corruption covered all the institutions including the educational institution which reached the uttermost degree of the corruption . he started his reformative revolution first in Najaf Ashraf ; the city that embraced him while he was student and fed him with her sciences , thought and morals . he tried to update and renew some of the researches methods used in its schools and fix some of the traditions and norms that the society used to adopt . after that he moved with his reformative revolution to Cairo of Egypt but in wider range . in Egypt he collected all the Egyptian intellectuals who studied at the important educational institution like Azhar trying to fix what was deteriorated by the fatawaal takleedwhich froze the mind .these

intellectuals worked on wakening the society by relying on newspapers , scientific and cultural magazines , literary forums and civil societies .

هوامش البحث

١. الفتلاوي / صباح / جمال الدين الأفغاني والعراق / العارف للمطبوعات- ط١- بيروت – ٢٠١٤ / ص ١٤١ .
٢. عمارة / محمد / جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق / دار الوحدة ـ ط١ – بيروت – ١٩٨٤ / ص ٤٤ ينظر الهامش رقم ١ .
٣. المصدر نفسه / ص ٢٠ .
٤. قاسم / محمود / جمال الدين الأفغاني / مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة / ص ٢٠ .
٥. رضا / رشيد محمد / تاريخ الأستاذ الامام / مطبعة المنار – القاهرة – ١٩٣١ / ص ٢٧ – ٢٨ .
٦. المحافظة / علي / الاتجاهات الفكرية عند العرب / الأهلية للنشر والتوزيع – بيروت ١٩٧٨ / ص ٧١ .
٧. الوردي / علي / لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج٣ / إنتشارات مكتبة الحيدرية / ص ٢٧٠ .
٨. العبطة / محمود / جمال الدين الأفغاني في بغداد / دار الحرية للطباعة – بغداد - ١٩٧٧ / ص ٧ .
٩. غزّال / مصطفى فوزي بن عبد اللطيف/ دعوة جمال الدين في ميزان الاسلام/ دار طيبة – ط١ – الرياض – ١٩٨٣ / ص١١.
١٠. الغروي / محمد / مع علماء النجف مج١/ دار الثقلين ط٢ – بيروت - ١٩٩٩ / ص٥٦ .
١١. الفتلاوي / صباح / جمال الدين الأفغاني والعراق / مصدر سابق / ص ١٥٩ .
١٢. الحكيم / حسن وآخرون / الشيخ عبد الكريم الجزائري ج٢ / دار الضياء – ط١ – النجف الأشرف - ٢٠١٠ / ص٢٩.
١٣. الوردي / علي / لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج٣ –إنتشارات مكتبة الحيدرية / ص ٨٠ .
١٤. خان / ميرزا لطف الله / جمال الدين الأسد آبادي / تعليق صادق نشأت / مكتبة الأنجلو مصرية – ط٢ - ١٩٥٧ / ص٥٤ .
١٥. حنفي / حسن وآخرون / جمال الدين الأفغاني والمشروع الاصلاحي / مركز دراسات الوحدة العربية – ط٢ – بيروت / ص٨٩ .

١٦. المصدر نفسه / ص ٨٩ .
١٧. المصدر نفسه / ص ٩٠ .
١٨. الوردي والصالحي / علي وعبد الحسين / جمال الدين الأفغاني الفيلسوف الثائر / مؤسسة البلاغ – دار سلوني – ط١ - ٢٠٠٩/ ص ١٧٠
١٩. الفتلاوي / صباح / جمال الدين الأفغاني والعراق / مصدر سابق / ص ٥ .
٢٠. المصدر نفسه / ص ٣٦٨ .
٢١. الأفغاني وعبده / جمال الدين ومحمد / العروة الوثقى/ مصدر سابق / ص ٣٥.
٢٢. عمارة / محمد / الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني / ص٤٨٣ .
٢٣. عبد جاسم / منتهى / جدلية العلاقة بين التربية والسياسة عند محمد عبده / منشورات بيت الحكمة – ط١ – بغداد - ٢٠١٣ / ص٢١ .
٢٤. الأفغاني وعبده / جمال الدين ومحمد / العروة الوثقى / مصدر سابق/ ص١٤ .
٢٥. بلنت / و . س / الأفغاني محمد عبده / ترجمة علي شلش / دار الهلال / ص ١٣ .
٢٦. الرافعي / عبد الرحمن / عصر إسماعيل ج٢ / الهيئة العامة للكتاب – القاهرة – ٢٠٠٠ / ص ١٣١ .
٢٧. محمد حسن/ عبد الباسط / جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الاسلامي/ مكتبة وهبة – ط١ – القاهرة - ١٩٨٢ / ص١٥٨ .
٢٨. المصدر نفسه / ص ١٧٨ .
٢٩. المصدر نفسه / ١٩٣ .
٣٠. المصدر نفسه / ص ١٨١ .
٣١. رضا / محمد رشيد / تاريخ الأستاذ الامام ج٢ / مطبعة المنار– القاهرة - ١٩٣١ / ص٧ .
٣٢. محمد حسن / عبد الباسط / جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الاسلامي/ مصدر سابق / ص ١٨٩ .
٣٣. رضا / محمد رشيد/ تاريخ الأستاذ الأمام ج١/ مصدر سابق/ ص٣٦ .
٣٤. الأفغاني وعبده / جمال الدين ومحمد / العروة الوثقى / مصدر سابق / ٢٨٧ .
٣٥. محمد حسن / عبد الباسط / جمال الدين وأثره في العالم الاسلامي / مصدر سابق / ص ١٩٤ .

قائمة المصادر و المراجع

١ ـ الأفغاني وعبده / جمال الدين ومحمد / العروة الوثقى (مجلة) / دار الكتاب العربي ـ بيروت- ط٢- ١٩٨٠ .
٢ –بلنت / و .س / الأفغاني ومحمد عبده / ترجمة علي شلش / دار الهلال .

٣ – الحكيم / حسن وآخرون / الشيخ عبد الكريم الجزائري ج٢ / دار الضياء – ط١ – النجف الأشرف – ٢٠١٠ .
٤ - حنفي / حسن وآخرون / جمال الدين الأفغاني والمشروع الاصلاحي / مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت – ط٢ .
٥ – خان / ميرزا لطف الله / جمال الدين الأسد آبادي / تعليق صادق نشأت / مكتبة الأنجلو مصرية – ط٢ – ١٩٥٧ .
٦– الرافعي / عبد الرحمن / عصر إسماعيل ج٢ / الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ٢٠٠٠ .
٨– رضا / محمد رشيد / تاريخ الأستاذ الامام / مطبعة المنار – القاهرة – ١٩٣١ .
٩– عبد جاسم / منتهى / جدلية العلاقة بين التربية والسياسة عند محمد عبده / منشورات بيت الحكمة – ط١ – بغداد – ٢٠١٣ .
١٠– العبطة / محمود / جمال الدين الأفغاني في بغداد / دار الحرية للطباعة – بغداد – ١٩٧٧.
١١– عبده / محمد / تاريخ الأستاذ الامام ـ في فلسفة الصناعة ج٣ /
١٢– عمارة / محمد / جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق / دار الوحدة – ط١ – بيروت – ١٩٨٤ .
١٣– الغروي / محمد / مع علماء النجف الأشرف مج١ / دار الثقلين – ط١ – بيروت – ١٩٩٩ .
١٤– غزّال / مصطفى فوزي بن عبد اللطيف / دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الاسلام / دار طيبة – ط١ – الرياض – ١٩٨٣ .
١٥–الفتلاوي / صباح / جمال الدين الأفغاني والعراق / العارف للمطبوعات – ط١ – بيروت – ٢٠١٤ .
١٦– قاسم / محمود / جمال الدين الأفغاني / مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة .
١٧– المحافظة / علي / الاتجاهات الفكرية عند العرب / الأهلية للنشر والتوزيع – بيروت – ١٩٧٨ .
١٨– محمد حسن / عبد الباسط / جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الاسلامي الحديث / مكتبة وهبة – ط١ – القاهرة – ١٩٨٢ .
١٩– المخزومي / محمد باشا / خاطرات جمال الدين الأفغاني / المطبعة العلمية – بيروت – ١٩٣١ .
٢٠– الوردي والصالحي / علي وعبد الحسين / جمال الدين الأفغاني الفيلسوف الثائر / مؤسسة البلاغ – دار سلوني – ط١ – ٢٠٠٩ .
٢١– الوردي / علي / لمحات إجتماعية من تاريخ العراق الحديث / إنتشارات مكتبة الحيدرية.